

أبعاد التوكيد في العربية

أ. عبد المكيح والي دادة

يتكوّن أسلوب التوكيد من أدوات تدل عليه . وهي أنواع، منها ما هو منفصل، ومنها ما هو متّصل ببعض الكلمات . ويختلف نبرها وضغطها من سياق إلى آخر . على أن نميّزها في التوكيد اللفظي والتوكيد المعنوي .

يتفق جمهور النحاة أن للتوكيد المعنوي ألفاظا خاصة به . هي النفس والعين والعموم بكلّ وجميع وعامة وقاطبة وكافة وكلّا وكلتا . ويأتي التوكيد بالنفس لدفع توهّم قد يضاف إلى المؤكد . فلو سمع الواحد منا عبارة : جاء إمام المسجد . لتوهّم السامع أن الحاضر والقادم ربّما شيخ آخر أو غيره ولهذا قلنا (شيخ المسجد) من باب تعظيم أو تكبير الشيء . ولا نبرح هذه الكلمة والمقام حتى نردفها بـ : "نفسه " أو "عينه " . فإن احتمال الغير منفي في هذه الحال ولا إلزامية موجودة في زيادة التوكيد . فالذي يستدعي ذلك هو الموقف والسياق الذي نتحدّث فيه . فكم من تعبيرات لم ندعمها بأحد أنواع التوكيد، وكانت بليغة مفيدة .

ومن أغراض التوكيد كذلك، دفع إيراد عدم الشمول، فيكون في هذه الحالة التوكيد بكلّ وجميع . فإذا قلنا : حفظت القرآن . فلعلّ المستمع قد يفهم أن كلية الفعل لم تتحقق، إذ يفهم أن المحفوظ جزء من القرآن الكريم جزءه أو زد عليه، وحتى يذهب هذا التوهّم فإنه يستأنف جملته بعد ذلك ب (كله) وهنا تأتي سكتة (كله) دافعه لهذا التوهّم وهذا الظن .

ولا نحسب أن اللغة العربية قاصرة التفهيم وعاجزة الإبلاغ إلى درجة إيجاد وسائل تعيين المتكلّم . فما هذه الأساليب إلا ضرب من البلاغة التي عمدتها اللغويون قبل النحاة خصوصا . بدءا من الخليل بن أحمد الفراهيدي .

إن محاولة استنباط الأدلة تثبت لنا أن كلمة (نفسه) أو (عينه) مرادفة لكلمة (القرآن الكريم) وهذا من حيث الوظيفة النحوية لا غير . وقد يكون في هذه الحالة التوكيد بالمرادف . وكان قولنا : حفظت القرآن كلّ، مساو لقولنا : حفظت القرآن القرآن .

ولما كان الغرض واحد والهدف هو دفع احتمال أنه يكون المحفوظ ليس كامل القرآن فلا فرق إذن بين دلّتي التوكيد المعنوي واللفظي .

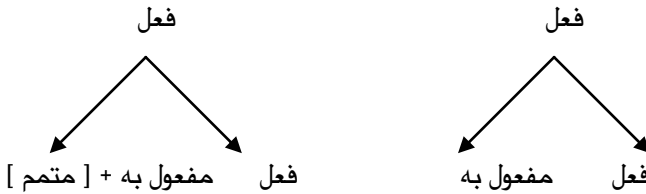
ولم يقبل النحاة ؛حفظت كل القرآن . لأنه جرى الترتيب في أصول النحو العربي أن تكون الجملة على الترتيب التالي :

فعل + فاعل + مفعول + [متمم].

فعل + فاعل + [متمم] + مفعول.

فعل + [متمم] + فاعل + مفعول.

ففي كل حالة لم نجد أسبقية المتمم للركن الأساسي في الكلام. فلا يقال : حفظت كلّ القرآن. لأن إعراب كلّ وهي توكيد عند البعض مفعول به، أما إعراب لفظ (القرآن) فهو مضاف إليه. ومضاف إليه غير الأساس في الكلام. والأمر نفسه نقف عليه إذا جاء التوكيد للفاعل كأن نقول: "حفظ نفس الولد متن الأجرومية". (إعراب (نفس) في هذه الجملة "فاعل" أما الولد فهو مضاف إليه. وهذا غير نية المتكلم. لأن المؤكد يسبق دائما المؤكد به. فلا يجوز تقديم التوكيد وهو فضلة عن المؤكد. هذا من حيث البعد النحوي التركيبي أما من حيث المستوى الصوتي النطقي فكلام آخر يثبت مصداقية وظائف التنغيم. فإذا قلنا : حفظت [كلّ القرآن]. أو: حفظت [القرآن (كلّه)].



تأتي السكتة مفرقة بين التركيبين . ففي التركيب الأول تحكمه سكتة خفيفة بعد جملة: (حفظت) على أن التركيب الثاني يمكن أن يتحمل سكتتين : الأولى وهي قصيرة المدة الزمنية وتأتي بعد حفظت والثانية طويلة نسبيا إذا قارناها بسابقتها وموضعها بعد كلمة (القرآن). وهذه السكتة الثانية هي ما جعلت المتكلم ينبر على كلمة (نفسه).

أما التوكيد اللفظي عند النحاة هو تكرار اللفظ الأول بذاته، أو بمرادفه . مع تغيير في نغمة كل واحد باعتباره أساس للفهم. فالجملة تؤكد كما هي بعطف أو بغيره و منه قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ(4) ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾¹.

كما يؤكد الاسم الظاهر والفعل والضمير المنفصل. كل هذه الكلمات تؤكد بتكرارها كما هي: أما الحرف إذا كان جوابيا فإنه يؤكد بتكراره. فإذا كان غير جوابي أكد لفظيا أن يعاد معه ما اتصل به فتوكيد الحرف (نعم). فنقول: نعم نعم . وفي تكرار حرف الجر الباء واللام، نقول: بك بك أو له له.

ولعل السبب الذي جعل (نعم) تستقل في توكيدها أنه حق له استقلالية، ليس من عدم اتصاله بكلمة أخرى أو تعلقه بها؛ إنما له القدرة في كثير من الأحيان أن ينوب عن الجملة كاملة. بشرط وجود قرينة سياقية تمثل في التنغيم، الذي يغني عن بقية أجزاء الجملة. فحينما يسأل أحدا عن أمر ما فيكون رده وفقا لما سئل عنه وبدقة. فنحن نجيب

ب: نعم. لمن سألنا: هل نجحت ؟ و نجيب ببلى. عمن سألنا : ألم تنجح ؟ ففي الأول نجيب عن خبر أما الثاني فهو سؤال عن نفي أو ما يسمى بالسؤال الإنكاري، فالخلاف بين بين الإجابتين.

فهذه الحروف و إن تميزت بالقصر، فهي لا تغني عن كلام طويل في السياق . وبالتالي، فهي تراكيب لها صبغة تنغيمية معينة أهلتها درجة تعويض التراكيب المألوفة عند الناس. والمركبة من مركب فعلي أو مركب اسمي. هل رأيت عمر؟ [رأيت عمر]. هل رأيت عمر؟ [مع نغمة مميزة]

وقد يستغني الواحد منا حتى على كلمة (نعم) مستعملا نغمتها فقط . وتؤدي وظيفتها كاملة ويكون على الشكل التالي:

هل رأيت عمر؟ [مع نغمة مميزة]. ونعتبر هذا كلاما مفيدا يدلّ على معنى، وصالح للتواصل. لكن لا يتمّ هذا إلا بتوفر إطار وسياق معيّن.

أما بقية الحروف فهي ضامّات. لا يمكن استقلالها ومنها حروف الجر والعطف . فيجب توكيدها مع ما اتصل بها. ولا يمكن أن نتصور وكيدا لأحد حروف الجر دون مجروره . وهذا ما نعتقده مع حروف أخرى كالاستفهامية و الموصولة . وقد ذكر النحاة عدّة شواهد جاء فيها التوكيد على الحرف الجوابي (لا) منها قول الشاعر:

لا لا أبوح بحب بثنة إنها أخذت عليّ موثقا وعهودا

فذهب النحاة إلى أن الحرف (لا) أكّد بتكراره. و هو تفسير يعتمد المنهج الوصفي ولا نحسب أن (لا) الأولى مرادفة للثانية من حيث الوظيفة . فالأولى حرف جواب. أما الثانية فهي أداة نفي. ولو كانت الثانية أداة جوابية لما استقام معنى البيت الشعري . ولكان المعنى المستتبّط مخالفا لما أراده الشاعر . وهذا ما نفهمه حينما أجاب ع ن سؤال أساسه: هل تبوح بحب بثنة ؟ فردّ عليهم أولا: لا. ثم سكت قليلا واستأنف كلامه من جديد : لا أبوح بحب بثنة إنها أخذت عليّ موثقا وعهودا.

لا [سكتة]. لا أبوح بحب بثنة.

فالسكتة هنا وهي من عناصر التنغيم أساس لفهم القول . فلو كانت وظيفة (لا) ما أراده الشاعر.

(لا لا) [جملة]. (لا لا) [ت ف+ت إ+ت إ].

فلو اصطنع النحاة لأنفسهم علامات للترقيم لوجد القارئ نقطة للوقف بعد (لا) الأولى. ولأدركوا أن (لا) هذه بنفسها تكوّن جملة مفيدة يستحسن في تنغيمها أن نقف عليها لتمام الفائدة. و: "لما تورطوا في اعتبارها حرف نفي مؤكدا توكيدا لفظيا بحرف على مثل صورته.² فالاختلاف بين أن تكون (لا) حرف نفي مؤكدا أو جملة كاملة الإفادة

يحسن السكوت عليها. وقد يحتمل بيت ابن أبي ربيعة مع تغيير في النغمة دلالات جديدة، كان يُفهم منه معنى التقرير للتأنيب أو التعبير أو الالتجاء إلى الاعتراف.

وقد اعترف تمام حسان وكمال بشر على غرار اللغويين بخطأ منهج النحاة القدامى وفي فهمهم لبعض القضايا اللغوية.

والحق أن استغلال هذه الظواهر الصوتية و أمثالها ذو أهمية بالغة في تحليل المادة النحوية. وفي بيان قيم التراكيب ودلالاتها. و"قد يكون من المفيد أن نعلم مثلاً إلى باب الفصل والوصل في قواعد اللغة العربية و ندرسه من جديد على أسس صوتية . لربما يمكننا هذا الاتجاه من الوصول إلى قواعد أكثر دقة و موضوعية مما نألفه في كتب البلاغة التقليدية."³

والأمثلة التي يذكرها اللغويون لكثيرة في هذا الباب أهمّها : "لا و أَيْدِكَ الله " و"لا وشفاك الله". فالدعاء في المثال هو له لا عليه. فالسكتة التي تصحب المتكلم هي التي تحدد مقصود الدعاء ما إذا كان له أو عليه. فيمكننا بهذه السكتة الاستغناء عن هذه الواو، وذلك بأن نتبع أداة النفي بسكتة، فتكون جملة بذاتها. ثم نعقبها بجملة أخرى دون الواو ويمكن الاستفادة من وضع نقطة بعد أداة النفي على الشكل التالي: "لا . أَيْدِكَ الله" و"لا . شفاك الله".

وهكذا يظهر أن التنغيم قد أدى وظيفة الترقيم في الكتابة. هذه الوظيفة التي غفل عنها القدامى اتكالا على التعليق بالنغمة، إذ كان من الممكن فهم النصوص على ما فيها من تنغيم وسكت. وقد نقترح دون أن نبرح هذا المقام أن تُعاد قراءة بعض القضايا النحوية على ضوء الدراسات الصوتية الحديثة ؟

معلوم في النحو العربي أن الحرف غير الجواب لا يعاد ما لم يتصل معه قرينه في السياق. وقد شدّد عند عض النحاة قول الشاعر:

إن إن الكريم يحلم ما لم يرين من ايجاه قد أضيما

فالأصل عند النحاة أن تأتي هذه الجملة على النحو: إن الكريم إن الكريم . لأن (إن) حرف غير جوابي. فإذا طلبنا توكيده أعادنا معه ما اتصل به. وفي تصوره هذا، أن هناك وصلا نطقيا بين الحرفين و كأنهما مترادفان . وما نحسبه أن الحرفين ليسا من قبيل الترادف. فالحرف الأول حرف جوابي، بمعنى (نعم) و الثاني حرف توكيد و كأنني بالشاعر يقول: نعم إن الكريم يحلم ما لم يرين من ايجاه قد أضيما . ويزول اللبس والغموض في حالة استبدال العنصر (إن) بـ: (نعم). وربما كانت النغمة الحاصلة من السكتة جاعلة من الحرف (إن) الأولى شيئا غير التوكيد.

ولعل هذه بعض الشواهد التي ما كان لها أن توضع أصلا في باب التوكيد، فلكل شاهد تخرج محدّد و دقيق و ليس تقريب. ولو حاولنا أن نقف عند كلّ الشواهد التي ذكرها النحاة في باب التوكيد لصرفنا موضوع دراستنا وكان الأولى أن يُجْعَلَ الدليل التنغمي

Code Intonatif هاديا وسبيلا لفهم التوكيد وغير بعيد عن هؤلاء النحاة يقول الشيخ يس:
"الحرف إن كان جوابيا أو مفصولا بسكتة اعراضية أو بعاطف فلا شرط."⁴

الإمالات

- ¹ - سورة النبأ. الآية: 03. لم يقف القدامى على دلالات التوكيد في مثل هذه الآي. و منه ما ذهب إليه الشيخ محمد علي الصابوني، مختصر تفسير ابن كثير: "وهذا تهديد شديد ووعد أكيد".
- ² - اللغة العربية، معناها و مبناها. . الد/ تمام حسان. الهيئة المصرية للكتاب. 1973. ص: 228.
- ³ - علم اللغة العام - الأصوات -. الد/ كمال محمد بشر- دار المعارف - مصر -1980- ص: 192.
- ⁴ - شرح التصريح على التوضيح. حاشية الشيخ يس. ج.2. ص: 130.